تساؤلات ساذجة

يضيق الكونُ في نظر بعض النّاس، رغم رحابة أرضه، ورفعة سمائه، ويبدو داكناً في عيونهم، رغم ما فيه من بهاء ورواء وجمال، فكأنهم لا يرون منه إلا الجانب الموحش الكئيب.

استغرب كثيراً كيف يلجأ «مسؤولون» عندنا إلى إبداء التشاؤم والعبوس والتجهّم وكأني بهم قد وضعوا على عيونهم نظارات سوداء فوجدوا كل شيء أسود كئيباً. هل تراهم، أقله، صادقون؟ أولا يعلمون، بذكائهم الفطري أو المكتسب، ان النظرة في الأشياء تختلف باختلاف عقلية الإنسان المعني؟ ألا يؤمنون بحق الاختلاف بل بضرورته؟ ألا يستطيعون أن ينظروا إلى ما حولهم نظرات مجرّدة بريئة؟ ألا يملكون فضولية تجعلهم يبحثون دوماً عن حقائق الأشياء، حتى تلك التي يؤمنون بها؟ ألا يتبادر إلى أذهانهم انه من المفيد استجلاء ما قد يخفى عليهم من شؤون وشجون قد تلحق بهم من قريب أو من بعيد؟ هل تراهم يمثلون مَن يدّعون تمثيلهم من «ناسهم ومؤيّديهم ومحبيهم» أم أنهم يمثلون عليهم في حذق ما بعده حذق؟

بيد أن هناك أناساً آخرين، ومعظمهم من «صغار» القوم والمستصغرين منهم، تراهم ولو بدرجات، ينعمون ببدائع العالم الواسع، وإنْ عبر التلفزة ووسائل الاتصال والتواصل الأخرى. يحاول هؤلاء أن يمتّعوا قلوبهم بما تبقّى من مفاتن الطبيعة في الأرياف البعيدة، وبما فيها من صور سحرية آخاذة هي حصراً من صنع بارئ الأكوان في ربوعنا المتهالكة المتآكلة المتداعية. يبتهج هؤلاء الأبرياء بما يتراءى لهم، ويفيضون في وصف بعض مما أبدعته يد الخالق القدير، وبين هؤلاء الشرفاء العقلاء من استلهم الطبيعة، فأشعة الشمس عندهم خيوط الذهب، وأنوار القمر المطل من قمّة السماء الفسيحة، كحبال اللؤلؤ المنظوم، والنجوم اللامعة في الفضاء اللامتناهي كعيون مشعّة بالأمل البسّام، والسهل الموشّى بالزهور والأعشاب، كحلّة قشيبة خضراء من حلل الربيع الزاهي، والقمم الشامخة المتوّجة بالغيوم الملوّنة، رمز المهابة والجلال في عقيدة أولئك المتفائلين، الذين لا يزالون يعيشون في جو من الرجاء والهناء، والذين يخلقون إلى حدّ ما في محيطهم، عالماً مشعّاً بالزهو واللهو والطرب والراحة الفكرية الوادعة.

فلنصفو نوايا بعض «الكبار» عندنا وليلتئموا بالحد الأدنى في مناخ من التعاون والتجرّد والإيمان الذي ينشدّ به ليل نهار، وعندئذ تسلس لهم أو لسواهم من الشرفاء العقلاء الأمور قيادها، وتنيلهم الأمنيات طيباتها الحقة، هم قبل سواهم!!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه